﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [التّوبة: 94]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين حال المخلّفين الفقراء، وزيف معاذير أصحاب الغنى، الّذين ينبّئهم الله بما كانوا يعملون

تحدَّثتِ الآيةُ السَّابقةُ عن استئذانِ المنافقينَ وتخلُّفهم عن الجهادِ مع قدرتهم على الخروجِ؛ وجاءتْ هذه الآيةُ لتخبرَ عن حال المنافقينَ في تقديم الأعذارِ لرسولِ اللّهِ ﷺ عن عدمِ خروجهم، وبيَّنت عدمَ قبولِ اعتذارهم لعدم صدقهم فيما يقولونَ، وهو سبحانه عالمُ الغيبِ والشَّهادةِ، فلا يغيبُ عن علمهِ شيءٌ، وفي ذلك تحذيرٌ لهم من كذبهم؛ لأنَّهم سيرَدُّون إلى عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ، فيخبرُهم بما عملوا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾: الاعْتِذارُ مَصْدَرُ اعْتَذَرَ، وأَصْلُهُ مِنَ العُذْرِ، وهو: الحُجَّةُ التي يُعْتَذَرُ بها، وكُلُّ ما يَرْفَعُ اللَّوْمَ؛ فهو عُذْرٌ، يُقال: عَذَرْتُهُ عُذْرًا، أيْ: رَفَعْتُ عَنْهُ اللَّوْمَ، "وذلكَ على ثلاثةِ أضرُبٍ: إما أن يقولَ: لم أفعلْ، أو يقولَ: فعلتُ لأجلِ كذا، فيذكرُ ما يُخرجهُ عن كونه مُذنبًا، أو يقولَ: فعلتُ، ولا أعود، ونحو ذلكَ من المقالِ، وهذا الثّالثُ هو التَّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عذرٌ، وليس كلُّ عذرٍ توبةً". واعْتَذَرَ من ذَنْبِهِ، وتَعَذَّرَ: إذا تَنَصَّلَ منه، واحْتَجَّ لِنَفْسِهِ، قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾، واعْتَذَرَ أيضًا بمعنى: أَعْذَرَ، أيْ: صارَ ذا عُذْرٍ، ويُقال: اعْتَذَرَ إلى فُلانٍ، فَعَذَرَهُ، أيْ: أَزالَ ما كان في نَفْسِهِ عليه في الحَقِيقَةِ أو في الظّاهِرِ[1].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عذر)، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 30، والكفويّ، الكليّات، ص: 308.

2) ﴿تُرَدُّونَ﴾: الرَّدُّ: صَرْفُ الشَّيْءِ بذاتِه أو بحالةٍ من أحوالِه، ومن الرَّدِّ بالذّاتِ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28] ومن الرَّدِّ إلى حالةٍ كان عليها، قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: 149]، ويأْتي بِمعنى: المَنْعِ والرَّفْضِ، وشَيْءٌ مَرْدُودٌ، أيْ: مَرْفوضٌ، ورَدَّ فُلانًا: خَطَّأَهُ، أيْ: لَمْ يَقْبَلْهُ، وَمِن مَعانيهِ أيضًا: الإعادَةُ والإرْجاعُ، فالرَّدُّ كالرَّجعِ[1]، تَقول: رَدَّهُ إلى مَنْزِلِه، أيْ: أَعادَهُ، ورَدَّ إلَيْهِ جَوابًا، أيْ: أَرْجَعَهُ وأَرْسَلَهُ[2].

3) ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الغيبُ: مصدرُ غابَ الشَّيءُ؛ إذا استترَ عن العينِ، واستُعمل في كلِّ غائبٍ عن الحاسَّةِ، وعمّا يغيب عن علمِ الإنسان بمعنى الغائبِ، ويقالُ للشَّيء: غيبٌ وغائبٌ باعتبارِه بالنّاس لا باللّه تعالى؛ لأنَّهُ لا يغيب عنهُ شيءٌ[3]، والمرادُ بالغيبِ ما لا يُدركُ بالحواسِّ ممَّا أَخبَر الرَّسولُ ﷺ صَريحًا بأنَّهُ واقعٌ، أو سَيَقَعُ مِثْل وجُودِ اللّه، وصِفاته، ووُجُودِ الملائكةِ، والشَّياطِينِ، وأَشْراطِ السّاعةِ، وما اسْتأثرَ اللّه بعلْمِه، والشَّهادةُ: ضِدُّ الغَيبِ، وهيَ الأُمورُ الَّتي يُشاهدها النّاسُ، ويتوصَّلون إلى علمها، يُقالُ: شَهِدَ، بِمَعْنَى: حَضَرَ، وضِدُّهُ غابَ، ولا تَخْرُجُ الموجُوداتُ عن الاتِّصافِ بِهذَيْنِ الوَصْفَيْنِ، فَكأَنَّهُ قِيلَ: العالِمُ بِأَحْوالِ جَمِيعِ المَوْجُوداتِ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطِبُ اللّهُ تعالى المؤمِنينَ قائلًا لهم: إنَّ المُنافِقينَ المُتخلِّفينَ عن الجهادِ بلا عُذرٍ، سيعتَذِرونَ إليكم؛ إذا رَجَعْتُم إليهم من سفَرِكم

الوحيُ يفضحُ كلَّ منافقٍ كذوبٍ، ويوم الدّين ينبّئ الله المعتذرين، عمّا كانوا يخفون

(1) الرّاغب، المفردات: (ردد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ردد)، والكفويّ، الكليّات، ص: 476، والجرجانيّ، التعريفات، ص: 147.
(3) الرّاغب، المفردات: (غيب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (غيب، وشهد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/229، و7/309.

وجهادِكم، فقلْ لهم يا محمَّد ﷺ: لا تعتَذِروا، لن نُصَدِّقَكم، قد أعلَمَنا اللّٰهُ بأسرارِكم، وعَرَّفَنا كذِبَكم في اعتذارِكم، وسيرى اللّٰهُ عمَلَكم ورسولُهُ، ثمَّ تُرجَعونَ بعد مَوتِكم إلى عالِمِ كُلِّ سِرٍّ وعلانِيةٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، فيُخبِرُكم بما كُنتم تَعمَلونَهُ في الدُّنيا، ويُجازيكم عليه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفصلِ في: ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾:

فُصلتِ الآيةُ الكريمةُ عن سابقتِها؛ لأنَّها استئنافيَّةٌ ابتدائيَّةٌ، ولأنَّ هذا الاعتذارَ ليس قاصرًا على الَّذين يستأذنونَ في التَّخلُّف، إنَّما هو من شِيَمِ المنافقين عمومًا، وإن وقع الاعتذارُ من بعضِهم فلمناسبةِ استئذانِ الَّذين قَعدوا عن الجهادِ؛ فإنَّ الإذنَ لهم يُغنيهم عن التَّبرُّؤ بالحلْف الكاذبِ[1] في زعمهم.

الاعتذاراتُ الكاذبةُ دأبُ المنافقينَ، والله لا تخفى عنه خافية

وفيه إشارةٌ إلى إخبارِهِ ﷺ والمؤمنين بما سيكونُ من هؤلاءِ المنافقينَ من تقديمِ الأعذارِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاعتذارِ في قولِه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ دون (يتوبون)؛ لأنَّ الاعتذارَ أعمُّ من التَّوبةِ، فالعُذْرُ: الحُجَّةُ الَّتي يُعْتَذَرُ بها، وكُلُّ ما يَرْفَعُ اللَّوْمَ؛ فهو عُذْرٌ، "وذلك على ثلاثة أضربٍ: إمّا أن يقولَ: لم أفعل، أو يقول: فعلتُ لأجلِ كذا، فيذكرُ ما يخرجُهُ عن كونِهِ مُذنبًا، أو يقول: فعلتُ، ولا أعودُ، ونحو ذلك من المقالِ، وهذا الثّالثُ هو التَّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عُذْرٌ، وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً"[2]، والمُلاحظ أنَّهم يندرجونَ تحتَ النَّوعِ (فعلتُ لأجل كذا) لغرضِ رفعِ الملامةِ عنهم، وليس من بابِ التَّوبةِ، ولذلك لا يندرجونَ تحتَ

بعضُ الاعترافِ، لا يمحو - رغم أهميّته - دنسَ الاقترافِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/6.
(2) الرّاغب، المفردات: (عذر).

النَّوع الثّالثِ؛ لأنَّ اعتذارَهم دلَّلَ على اعترافِهم بالخطأ، وذلك لقوَّة المسلمين، وهذا يدلُّ على ضعف المنافقين.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم لم يعتذروا إيمانًا ولا تصديقًا، بل ليُحسن المسلمون معاملتَهم فقط، أمّا التَّوبةُ؛ فتفيدُ النَّدم على ما صدرَ من المعاصي، وهم لم يفعلوا ذلكَ، ولأنَّهم يطلبون محو الذَّنب فقط؛ لأنَّ لفظَ الاعتذارِ من معانيه محوُ أثرِ الذَّنب، وأصله: إن تعذَّرت المنازل، أي: درست، وانمحت آثارها، ومن معاني العذرِ: القطعُ، يقولون: اعتذرتِ المياهُ، أي: انقطعتْ، فكأنَّ المعتذرَ يحاولُ قطعَ الذَّمِّ عنه، وهذا ما يهدف إليه المنافقون من هذا الاعتذارِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾:

الاعتذارُ سمةٌ متجدِّدَةٌ من المنافقينَ الفجّار، لخداع المؤمنين الأبرار

عَبَّرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾ دلالةً على استمرارِ الاعتذارِ منهم وديمومتهِ وتكرارِ صفتهِ وتجدُّدِ حدوثِه؛ لإزالةِ الجُرمِ واللَّومِ عنهم، وممَّا يؤكِّد ذلك ما سبق ذكرُه من محاولة اعتذارهم عند استهزائِهم بآياتِ اللهِ ورسوله، وردَّ القرآنُ عليهم بقوله: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة: 66]، فإنَّ دأبَ هؤلاءِ الاعتذارُ عمومًا، ويحسبون أنَّ ذلك أمرٌ مقبولٌ يقبله النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون، ولذلك أكثروا من الاعتذارِ، ولاسيِّما في أمرِ الجهاد، يصوِّر ذلك التَّعبيرُ بالفعل المضارع.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ للضَّميرِ، في لفظ: ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾:

تحقيرُ المنافقينَ والاشمئزازُ من ذكرِهم، ردع لهم

أسندَ الفعل بالضَّميرِ في قوله: ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾ عن فريقٍ من المنافقينَ اعتذروا بعدَ رجوعِ النَّبيِّ والمؤمنين معه من غزوة تبوكَ، وهم الذين سبقَ ذكرُهم في قوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [التَّوبة: 90].

وذلك من بابِ تحقيرِهم والاشمئزازِ من ذكرِهم، وهذا الإضمارُ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/138.

أيضًا يبرزُ طبعَهم في عدمِ الظُّهورِ بفعلتِهم، وهذا دأبُ المنافقين وسُلوكُهم مع المؤمنينَ، فهم يعتذرون في كلِّ مرَّةٍ عن تخلُّفِهم، ولا يعلنون عن أنفسهم إلّا في حالةِ ضعفِ المسلمين.

دلالةُ كافِ الخطابِ في: ﴿إِلَيْكُمْ﴾:

بيان حال قيادة الـرَّسـولِ ﷺ لـلـمـؤمـنـين في الحرب والسِّلمِ

والخطابُ في ﴿إِلَيْكُمْ﴾ إلى الرَّسولِ ﷺ والجمعُ للتَّعظيم؛ لأنَّ الاعتذارَ للرَّسولِ ﷺ هو اعتذارٌ لجميع المؤمنين؛ لأنَّهُ القائدُ والإمام الَّذي يؤتمُّ به، وقيل: له ﷺ ولأصحابه، وهذا هو الأَولَى؛ لأنَّهم كانوا يعتذرون للجميع، أي: يعتذرون إليكم في التَّخلُّف؛ إذا رَجَعْتُمْ من الغزو منتهين إِلَيْهِمْ[1]؛ لأنَّ المنافقين يقصدون بأعذارِهم النَّبيَّ ﷺ ويعيدونها مع جماعات المسلمين[2]، ويدلُّ أيضًا على أنَّ الاعتذارَ كان مشافهةً، وفي مواجهةِ المسلمين، فلم يرسلوا اعتذارًا، ولا أنابوا أحدًا عنهم، بل كانوا في موضع المهزومِ الَّذي ينتظرُ عفوَ المنتصرِ عنهم.

دلالةُ تعدِّي الفعلِ ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾، بحرفِ الجرِّ (إلى):

الـحـرصُ على إعـلانِ الاعـتـذارِ بـأيِّ وسـيـلـةٍ، لإقـنـاعِ الـرّسـول والمؤمنين

قولِه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾، آثرَ تعدِّي الفعل ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ بحرف الجرِّ (إلى) دون اللّام؛ لأنَّ (إلى) معناها انتهاءُ الغاية، فهم يبحثونَ عن قبولِ اعتذارِهم بأيِّ وسيلةٍ ومن أيِّ جهةٍ من الجهاتِ سواءٌ كان ذلك بإعلانِ اعتذارِهم أو بالحلفِ عليه، بخلاف اللّام الَّتي تفيدُ الاختصاصَ أو الاستحقاقَ، والمنافقونَ لا يقرُّون بذلك في حقيقة أنفسِهم للمؤمنين، فهدفُهم فقط هو تقديمُ الاعتذارِ للحفاظِ على مصالحِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾:

الـشَّـرطُ مشعرٌ بتحقيقِ الوقوعِ، ويقينِ حصوله

قولِه: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿إِذَا﴾ دون (إن)؛ لأنَّ إذا في كلامِ العربِ تُستعملُ للمقطوعِ بحصولِه، فقولُه: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/4، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/374، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/6 - 7.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.

يدلُّ على تحقُّقِ اعتذارِ المنافقين من المؤمنينَ حالَ رجوعِهم من غزوتِهم، ولم يُعبِّر بـ (إن) الَّتي تفيدُ الشَّكَّ في الوقوعِ أو نُدرتَهُ؛ لأنَّها غيرُ مناسبةٍ في هذا الموقفِ الَّذي يحرصُ المنافقونَ فيهِ على الاعتذارِ، وفيه إخبارٌ بغيبٍ لم يقعْ بعدُ؛ لأنَّ السُّورةَ نزلتْ بعدَ القفولِ من غزوةِ تبوكَ، وجعْلِ الرُّجوعِ إلى المنافقين حاصلًا؛ لأنَّه المقصودُ من الخبر عند الرُّجوع[1] وفيه تنبيهُ المنافقينَ إلى تغييرِ موقفِهم منَ الرَّسولِ ﷺ من عدمِ الإيمانِ بهِ إلى تصديقِهِ واتِّباعِهِ والإيمان بالقرآنِ الَّذي فضحَ سرائرَهُم وكشفَ نيّاتِهم.

دلالةُ تعدّي الفعلِ ﴿رَجَعْتُمْ﴾ بالحرف (إلى):

إبـــرازُ الـفـلاحِ والفوزِ للمؤمنينَ

تعدَّى الفعلُ ﴿رَجَعْتُمْ﴾ بـ (إلى) الَّتي تدلُّ على انتهاءِ الغاية، للإشارةِ إلى الغايةِ الَّتي هي مرادُ اللهِ لرسولِهِ والمؤمنين بعودتِهم سالمين، لا كما كانوا يظنُّونَ من قتلِ الرُّوم وتغلُّبِهم على المسلمين، ويكونُ المعنى: ﴿رَجَعْتُمْ﴾ من الغزو منتهين ﴿إِلَيْهِمْ﴾[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿رَجَعْتُمْ﴾:

البشارةُ بتحقُّقِ الـرُّجـوعِ إلى المدينةِ، ملمح من واقعِ المشهد

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالماضي الَّذي يدلُّ على تحقُّقِ رجوعِهم إلى المدينةِ المنوَّرةِ سالمينَ غانمينَ؛ لأنَّ المنافقينَ ما كانوا يتوقَّعونَ أن يعودَ الرَّسولُ ﷺ وأصحابُهُ منتصرين، بل كانوا يتوقَّعونَ أنَّ الرُّومَ سيقضونَ عليهم، ولا تقومُ لهم قائمةٌ بعد ذلكَ، فخيَّبَ اللهُ ظنَّهم بأنِ امتنَّ على الرَّسولِ ﷺ وأصحابِهِ بالرُّجوعِ المظفَّرِ إلى المدينة.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

تسابقُ المنافقينَ إلى الاعـتـذارِ، دليل عـلى قـوّة الإسلام وهيبته

جاء التَّعبيرُ بقولِهِ: ﴿رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ ولم يقلْ إلى المدينةِ؛ إيذانًا بأنَّ مدارَ الاعتذارِ هو الرُّجوعُ إليهم لا الرُّجوعُ إلى المدينة، فلعلَّ منهم مَنْ بادرَ إلى الاعتذارِ قبلَ الرُّجوعِ إليها[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93.

وفيه إشارةٌ إلى تسابقِ المنافقينَ للاعتذارِ لدرجةِ أنَّهم خرجوا من المدينةِ؛ ليستقبلوا المسلمينَ بهذا الاعتذارِ، ولم ينتظروا وصولَهُم إليها، وفي هذا إعلانٌ لقوَّةِ المسلمين وخيبةِ المنافقينَ وإبراز جبنِهِم في مواجهةِ المسلمين.

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بالأمرِ بلفظ ﴿قُل﴾:

جاءَ الخطابُ بقوله: ﴿قُل﴾ لرسولِ اللّهِ؛ لأنَّهُ ﷺ رأسُهم والمتولِّي لما يرد عليهم من جهةِ الآخرين[1] وإن كان الاعتذارُ منهم كائنًا إلى جميعِ المؤمنينَ، وفيهِ تأييدٌ لنبوَّتِهِ ﷺ ورسالتِهِ بإبلاغِ قولِ اللّهِ لهم، وفيهِ إشارةٌ إلى أمرِ اللّهِ للمؤمنينَ بأن يفضحوا المنافقينَ على رؤوسِ الأشهادِ قائلينَ لهم: لا تعتذروا.

إعـلانٌ إمامتـهِ وقيـادتـهِ ﷺ، للأمّة

الغرضُ من أسلوبِ النَّهي في قولِهِ: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾:

نهى اللّهُ المنافقينَ عن الاعتذارِ؛ لأنَّهُ كذبٌ، والتَّمادي في الاعتذارِ الكاذبِ تمادٍ في الكذبِ، والتَّمادي في الكذبِ فجورٌ، وهو غير مقبول[2].

تأييسُ المنافقينَ مـن تـصـديـقِ المؤمنينَ لهم

وعلَّل الرَّازيُّ ذلك، فقالَ: إنَّ قوله تعالى: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾ علَّةٌ للمنعِ من الاعتذارِ؛ لأنَّ غرضَ المعتذرِ أن يصيرَ عذرهُ مقبولًا، فإذا عُلِم بأنَّ القومَ يكذِّبونه فيه؛ وجبَ عليهِ تركُهُ.

ويدلُّ النَّهي أيضًا على رفضِ سماعِ الاعتذارِ لا قبولِهِ، فهناك فرقٌ بين إنسانٍ يعتذرُ إليك وتسمعُ عذرَهُ، ثمَّ بعد ذلك تقبلُهُ، أو ترفضُهُ، أمّا الَّذي معنا هنا، فهو رفضُ السَّماعِ، وهو أبلغُ في التَّيئيسِ ممَّا لو قيلَ: لا تقبلوا عذرَهُم.

"ليسَ النَّهيُ على أصلِهِ؛ لأنَّهُ وقعَ، وإنَّما نهوا عن ذلك؛ لأنَّ ما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/4، والقنوجيّ، فتح البيان: 5/374.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3416.

يزعمونَهُ معلومُ الكذبِ بيِّنُ البُطلان، فالآلوسيُّ - رحمه الله - يلمِّحُ بكلامِهِ هذا إلى أنَّ النَّهيَ أفادَ التَّيئيس[1].فالنَّهيُ لتأييسِ المنافقينَ من تصديقِ المؤمنينَ لهم؛ لِما جلّاه الله تعالى لهم من أخبارٍ، وفضْحِهِ سيِّئَ سرائرِهم.

دلالةُ الفصل في: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾:

عِلَّةُ النَّهي عن الاعتذارِ، فلا معنى لعذرٍ لا يصدّق

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لِمَا بينهما من كمالِ الانقطاعِ، فالأولى إنشائيَّةٌ والثانيةُ خبريَّةٌ؛ فالثَّانية استئنافٌ تعليليٌّ لبيانِ موجبِ النَّهي في قولِه: ﴿لَّا تَعْتَذِرُواْ﴾، فهو مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من قِبَلِهم، مُتَفَرِّعٍ على ادِّعاءِ الصِّدقِ في الاعتذارِ، كأنَّهم قالوا: لِمَ لا نَعتَذِرُ؟ فقيل: لأنَّا لا نُصدِّقُكم أبدًا، فالجُملةُ عِلَّةٌ للنَّهي عَنِ الاعتذارِ؛ لأنَّ غرَضَ المعتَذِرِ أن يُصدَّقَ فيما يَعتَذِرُ بهِ، فإذا عَلِمَ أنَّه لا يُصدَّقُ؛ ترَكَ الاعتذارَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿لَن﴾ دون (لا) في السّياق:

بيان المبالغة في نفي الإيمانِ عنِ المنافقينَ

قوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾، وفيه عبَّر بـ﴿لَن﴾ دون (لا)؛ لأنَّ ﴿لَن﴾ تفيدُ تأكيدَ النَّفي، بخلافِ (لا)؛ لذلكَ عبَّر بـ﴿لَن﴾ الَّتي تفيدُ المبالغةَ في تأكيدِ نفي الإيمانِ عن هؤلاءِ المنافقينَ في الحالِ والاستقبالِ، وذلك لما فيها من دلالةٍ على زمنِ الاستقبالِ، وللإشارةِ إلى قطعِ الأملِ في قلوبِ المنافقينَ عن رواجِ الاعتذارِ عندَ المؤمنينَ، فلن يصدِّقوهم اليومَ، ولا بعدَ اليوم، مهما أجهدوا أنفسَهم، وبذلوا وُسعَ طاقتِهم في محاولةِ إقناعِ المؤمنينَ بقبولِ أعذارِهم.

بلاغةُ التَّضمينِ في سياق نفي الإيمان لهم مستقبلا:

المرادُ في هذهِ الآيةِ، تأكيد امتناعهم عن التّصديق، بما يقدّمون من معاذير كاذبة

قولُه: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾: في الجملةِ الكريمةِ تضمينٌ؛ إذ ضمَّن الإيمانَ معنى الرِّضا والتَّسليم والإذعان، فعُدِّي باللَّام[2]؛ لأنَّ الفعلَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/320، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/302، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/489، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/449، والبقاعي، نظم الدّرر: 4/93.

(آمن) يدورُ معناهُ حولَ عدَّةِ معانٍ، تقول: (آمن) أي: اعتقدَ وصدَّقَ، مثل قولنا: (آمن باللّه)، ويقال: آمنَ بالشَّيء: صدَّقه، وآمن بكذا، أي: صدَّق ما قيل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: 17]، أي: لن تصدِّقَنا، والفعل (آمن) إذا تعدَّى بالباءِ؛ فمعناهُ الاعتقادُ، وإن تعدَّى باللّام؛ فمعناهُ التَّصديقُ، وهو المرادُ في هذهِ الآيةِ، وإن تعدَّى بغيرهما؛ فمعناهُ إعطاءُ الأمانِ، وآياتُ القرآنِ على هذهِ المَعاني واضحةٌ[1] فالمعنى: لن نأمنَ لكم، ولولا التَّعدِّي باللَّام لما تحقَّق هذا المعنى.

دلالةُ ضميرِ الجمعِ في: ﴿نُّؤۡمِنَ﴾:

استعمالُ ضميرِ المتكلِّمِ للمُبالغةِ

جمعَ ضميرَ المتكلِّم في ﴿نُّؤۡمِنَ﴾ من قولهِ: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾؛ للمُبالَغةِ في حَسْمِ أطماعِهم مِن التَّصديقِ رأسًا، ببَيانِ عدَمِ رَواجِ اعتذارِهم عندَ أحَدٍ مِن المؤمنين أصلًا[2]، فإنَّ تصديقَ بعضِهم لهم ربَّما يطمعُهم في تصديقِ الرَّسولِ ﷺ أيضًا بواسطة المصدِّقين، وللإيذانِ بافتضاحِهم بينَ المؤمنينَ.

وهذا المعنى ينطبقُ على سرِّ التَّعبيرِ بنونِ الجمعِ في قولهِ تعالى: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ دفعاً للتَّكرارِ في هذا الموضعِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالإيمانِ: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾:

مجابهةُ المعتقدِ تكونُ إيمانًا أو كفرًا

آثرَ التَّعبيرَ بالإيمانِ دونَ التَّصديقِ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالإيمانُ أخصُّ من التَّصديقِ؛ لأنَّهُ يُسْتَعْمَلُ على نحوٍ مخصوصٍ بخلاف التَّصديقِ، فهو أعمُّ؛ لأنَّ كلَّ مُخبِرٍ عن مشاهدةٍ أو غيبٍ، يقالُ له لغةً: صدقْتَ، ويقالُ له: كذبْتَ، ولذلك يقالُ للشُّهودِ: صدَّقناهُم، ولا يقالُ آمنّا لهم، وأيضًا أنَّ الإيمانَ يقابلُهُ الكفرُ، والتَّصديقُ يقابله

(1) الشّعرواويّ، تفسير الشّعراويّ، ص: 5421.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93.

التَّكذيبُ، وعلى ذلك آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإيمانِ هنا دون التَّصديقِ، وإن وجد بينهما تقاربٌ في المعنى العامِّ، إلّا أنَّ القرآنَ يريد أن ينفي عنهم الإيمانَ، وهذا يلزمُ منه في المقابلِ الوصفُ لهم بالكفرِ، وأيضًا.

تقريعُهم وتوبيخُهم بأنَّهم ليسوا أهلًا للصِّدق؛ لأنَّهم لو كانوا صادقينَ حقيقةً؛ لصدقوا اللّهَ ورسولَهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿نَبَّأَنَا﴾:

التَّشهيرُ بالمنافقينَ، وسيلةٌ مشروعةٌ لفضحِ سلوكِهم، والتّحذير منهم

قال: ﴿نَبَّأَنَا﴾، ولم يقل: (نبَّأني) إيماءً إلى أنَّ اللّه أمَرَ رسوله ﷺ أن يبلِّغ المؤمنين بأحوالِ هؤلاءِ المنافقين حتَّى يكونوا على بيِّنة من أمرِهم[1]، ولم يكن هذا النَّبأ خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ لأنَّ اعتذارَهم لجميع المؤمنينَ معَ الرَّسولِ ﷺ يقتضي أن يكونوا كلُّهم عالمين بما فضحَهم اللّهُ به، وإن كانَ المُبَلِّغُ لهم هو الرَّسول ﷺ بما له من الرِّياسةِ، وما لخبره من الثِّقةِ الَّتي لا يشكُّ فيها أحدٌ؛ لأنَّ نبأ الرَّسولِ عن ربِّهِ معصومٌ من كلِّ خطأٍ، وفي هذا من التَّشهيرِ بهم، والخزي لهم ما لا خفاءَ فيه[2].

الموقعُ البيانيُّ لقولِهِ: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا﴾:

اعتذارُ المنافقينَ لا فائدةَ منه؛ لفضحِ اللّهِ كذبَهم

الجملةُ تعليلٌ لنفيِ تَصْديقِهم، أي: قد نبَّأنا اللّهُ من أخبارِكم بما يَقْتَضي تَكذيبَكم، وهذه الجُمْلَةُ عِلَّةٌ لانتفاءِ تَصْديقِهم؛ لأنَّ اللّهَ ﷻ إذا أوحَى إلى رسولِه الإعلامَ بأخبارِهم، وما في ضَمائرِهم من الشَّرِّ والفسادِ؛ لم يَستَقِمْ معَ ذلك تَصديقُهم في مَعاذيرِهم[3].

دلالةُ ﴿قَدْ﴾ في دخولِها على الماضي:

المنافقون ليسوا أهلًا للتّصديق في كلامهم، ولا في قبول معاذيرهم

دخلتْ (قد) على الفعلِ الماضي ﴿قَدْ نَبَّأَنَا﴾، فدلَّت على فِعليَّته،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/302، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/123، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/489، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/383.

(2) عبد الفتّاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 189.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/302.

وأفادتِ التَّحقيق، أي: إنَّ ما أنبأنا اللّهُ به ثابتٌ ويقينٌ ومُتحقِّقٌ، وفي هذا تعريضٌ بالمنافقين، وأنَّهم ليسوا أهلًا للتَّصديق في قبولِ أعذارِهم.

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ المفعولِ بهِ الثَّالثِ في: ﴿نَبَّأَنَا﴾:

نَبَّأَ في الجملةِ تعدَّت إلى مفعولين كَعَرَّفَ، نحو قوله: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا﴾ [التّحريم: 3]؟ والثّاني هو ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: جُمْلَةً مِنْ أَخْبارِكُمْ، وقيل: (نَبَّأَ) بمعنى: أعلم المتعدِّية إلى ثلاثة، والثّالث محذوفٌ اختصارًا؛ لدلالةِ الكلامِ عليه، أي: من أخبارِكم كذبًا أو نحوه[1].

الحذف ملمح من ملامح البلاغة، تؤدّى به المعاني، في أوجز الألفاظ

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾، آثرَ التَّعبير فيه بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ الَّذي يجمعُ كلَّ صفاتِ الجمالِ والجلالِ والكمالِ؛ لأنَّ كلَّ ما يصدرُ عن الإنسانِ من قولٍ أو فعلٍ أو حركة؛ اللّهُ يعلمُها، ويخبرُ بها رسولَهُ والمؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانِهم، وليوبِّخَ المنافقين على فعلتِهم وكذبِهم، فهوَ لا تخفى عَليهِ خافيةٌ، فليحذروا عقابَ اللّهِ في الدُّنيا والآخرة، ففي التَّعبيرِ بهِ إدخالٌ للمهابةِ على النُّفوسِ.

لفظ الجلالة منبّه لإحاطة الله بعلم كلّ شيء، لزجر المنافقين عن غيّهم

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مِنْ﴾:

جاء التَّعبيرُ بـ ﴿مِنْ﴾ في قولهِ: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾؛ وهي إمَّا أن تكونَ للتَّبعيضِ، أي: قد نبَّأنا اللّهُ تعالى ببعض أخبارِكم، وهو ما يتَّصلُ بنيّاتكم وبقلوبِكم، وبالأفعالِ الَّتي تقصدونَ بها إفسادَ عزائمِ المؤمنين، وتخذيلِهم عن المجاهدينَ، وحقيقة ما تقصدونَ باعتذاراتِكم الكاذبةِ، وإمَّا أن تكونَ لبيان الجنسِ، ولا مانعَ أن يجتمعَ للحرفِ ﴿مِنْ﴾ معنى التَّبعيض وبيان الجنس؛ لأنَّ (مِنْ) البيانيَّة هي من ضروب (مِن) التَّبعيضيَّة، قال أبو حيَّان: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: جملةً من أخبارِكم[2].

تعدُّدُ معاني الحروف، ثراءٌ للمعنى، وبيان للدّلالة

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/330، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/489.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/489.

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿أَخۡبَارِكُمۡ﴾:

من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها، ولا شيء يخفى على الله

آثرَ التَّعبيرَ بالجمعِ ﴿أَخۡبَارِكُمۡ﴾ دونَ المفردِ للإشارةِ إلى علمهِ ﷻ بكلِّ أخبارِ المنافقينَ عمومًا، وما يتعلَّقُ بأخبارِهم في أمرِ الجهادِ خصوصًا، وفي هذا إشارةٌ إلى مراقبتهِ ﷻ لكلِّ ما يصدرُ عنهم في الظَّاهرِ والباطنِ، من الأقوالِ والأفعالِ الَّتي يقصدون بها تثبيطَ عزائمِ المؤمنينَ، عن الجهادِ في سبيلِ اللّٰهِ.

دلالةُ العطفِ بالواوِ في: ﴿وَسَيَرَى﴾:

بيان أن لا فائدة في الاعتذار، وأنّه إنْ تُبتم فسيرى الله أعمالكم على حقيقتها

أفادَ عطفُ جملة: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ بالواوِ على جملةِ لا تعتذروا، مطلقَ الجمعِ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه في معنًى واحدٍ، تقديرهُ: لا فائدةَ في اعتذاركم، فإن خشيتُم المؤاخذةَ فاعملوا الخيرَ للمُستقبلِ، فسيرى اللّٰهُ عملَكم ورسولُهُ إن أحسنتُم[1].

وفي اختيارِ العطف بالواو دونَ الفاءِ مثلًا إشارةٌ إلى إعطاءِ مهلةٍ للمنافقينَ للخروج ممّا هم فيه، وذلك بالانضمامِ إلى المؤمنينَ والخروج معهم للجهادِ.

بلاغةُ الكنايةِ في جملة ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾:

تحذيرُ المنافقينَ وترهيبُهم، ليدركوا أنّ الله لا يخفى عليه أمرهم

قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾؛ عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالرُّؤيةِ لأنَّهم كانوا يظهرونَ من أنفسِهم عند ذكرِ المعاذيرِ حبًّا للرَّسولِ ﷺ والمؤمنين وشفقة عليهم ورغبة في نصرتِهم؛ فكانَ قولُ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ من بابِ تحذيرِهم إذا تركوا هذهِ الحالةَ الَّتي يظهرونها من الصِّدقِ وادِّعاءِ المحبَّة.

وفيه إشارةٌ إلى دعوتهم إلى ترك النِّفاقِ بأن يتوبوا ممّا هم فيه؛ لأنَّ اللّٰهَ مطلِّعٌ على نيّاتهم، فإن تابوا، وأنابوا؛ فاللّٰهُ يقبلُ توبتهم[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى ترغيبِهم في العملِ الصّالح، وترهيبِهم من الدَّوام على حالِ النِّفاق.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/366.

سرُّ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في موضعِ الإضمارِ:

غرض ورود اسم اللـه الأعـظـم، إدخالُ المهابةِ في قلوبِ المنافقين

إنَّ مقتضى ظاهرِ السِّياقِ يستدعي أن يُقالَ: (وَسَيَرَى عَمَلَكُمْ)، لكن وضعَ الاسمَ المظهرَ وهو لفظُ الجلالةِ (اللّه) موضعَ الضَّميرِ؛ لإدخالِ الرَّوعةِ والمهابة في نفوسِ المنافقينَ، ويضاف إلى ذلك أنَّ لفظَ الجلالةِ يجمعُ كلَّ صفاتِ كمالِ اللّه ﷻ، باعتباره اسمًا علمًا للذّات العليَّة.

سرُّ التَّعبيرِ بالسِّين في: ﴿وَسَيَرَى﴾:

عـرضُ أعـمـالِ الـعـبـادِ على اللـهِ ورسـولـهِ، ملمح لانكشاف السّرائر عنده

(السِّين) لتأكيدِ وقوعِ الفعلِ في المستقبلِ القريبِ، فأتى بالسِّين لقربِ الجزاءِ والثَّواب، أي: إنَّهُ ليس لكم أن تتكلَّموا في الماضي، فاللّهُ تعالى قد عَلِمه من قبلُ، ونبَّأنا به، وإنَّما الأمرُ الحاضر. (وَسَيَرى) أي: سيشاهدُ، أو سيعلم عِلم المشاهدةِ أو الواقع اللّه ورسوله[1].

إضافةً إلى ذلك أنَّ (قد) في قوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا﴾ دخلت على الفعل الماضي، فقرَّبت زمنه إلى الحال، فلو وضعنا (سوف) بدلًا من السِّين في هذا النَّصِّ، فسيُحدث اضطرابًا دلاليًّا لبعد الشُّقَّة بين الحالِ وزمن الاستقبالِ البعيدِ، فالسِّين لقربها الزَّمني من الحالِ صحَّ العطفُ فيها على فعلٍ ماضٍ قريبٍ زمنُهُ من زمنِ الحالِ.

دلالةُ الفصلِ بين ﴿ٱللَّهُ﴾ و﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ بقولهِ: ﴿عَمَلَكُمْ﴾:

رؤيةُ اللهِ تعالى أعمالَ بني آدَمَ ليستْ كـرؤيـةِ رَسولِ اللهِ ﷺ

فُصِلَ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ؛ للدَّلالةِ على اختلافِ حالِ الرُّؤيتين، فالرُّؤيةُ صفةٌ ذاتيَّةٌ ثابتةٌ للّه ﷻ، وليست رؤيةُ اللّهِ تعالى أعمالَ بني آدَمَ كرؤيةِ رَسولِ اللّهِ ﷺ وإن كان اسمُ الرُّؤيةِ يقَعُ على الجميع[2]، وللإشعارِ بأنَّ وراءَ الوعيدِ هو عِلمهُ ﷻ بأعمالهم[3]؛ لأنَّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/5، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/345، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3416.
(2) ابن تيميّة، جامع المسائل: 3/168، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/124، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/324، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7، والسّقاف، صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسّنة، ص: 184، و185.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/5.

الرُّؤيةَ المُعدّاةَ إلى مفعولٍ واحدٍ، هي الإبصارُ، والمُعدّاةَ إلى مفعولينِ هي العِلمُ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿عَمَلَكُمْ﴾:

قولِه: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾، وفيه آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ العمل دونَ الفعل؛ لأنَّ العملَ أخصُّ من الفعل، باعتبار أنَّهُ لا يصدرُ إلّا عن قصد؛ بخلافِ الفعلِ، فيكونُ بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ما يفعله المنافقون من تثبيطِ المسلمين عن الخروجِ للجهادِ فضلًا عن عدمِ خروجِهم هم، هو عملٌ مقصودٌ يقصدونَ من ورائهِ إضعافَ المسلمينَ ماديًّا ومعنويًّا.

عمل المنافقين مكرّس في تثبيط المؤمنين، وزرع الوهن في صفوفهم

سرُّ التَّعبيرِ بالمفردِ بـ ﴿عَمَلَكُمْ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالمفردِ ﴿عَمَلَكُمْ﴾ دونَ الجمعِ (أعمالكم)، مع أنَّ السِّياقَ موافقٌ للجمعِ، حيثُ سبق قولُهُ: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ بصيغةِ الجمعِ؛ لكنَّهُ آثرَ المفردَ؛ لأنَّهُ مصدرٌ، والمصدرُ يدلُّ على القليلِ والكثيرِ، وأيضًا للإشارةِ إلى أنَّ أعمالهم العدائيَّة تجاهَ رسولِ اللّهِ والمؤمنينَ واحدةٌ في الهدفِ، وإن تعدَّدت في الأسلوبِ.

أعمال المنافقين متشابهة، وإن تعدّدت الأساليب والوسائل

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بـ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالرِّسالة دونَ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ إبلاغٍ من اللّهِ للمنافقينَ على لسانِ رسولهِ ﷺ بقولِه: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾، فيناسبُ البلاغُ الرِّسالةَ، قالَ تعالى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

البلاغ مرتبط بالرّسالة، وما على الرّسول إلّا البلاغ المبين

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

في قولِه: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّها للتَّرتيبِ والتَّراخي، والتَّراخي هنا في موضعه؛ لأنَّ فيه الانتقالَ من الدّارِ الفانيةِ إلى الدّارِ الباقيةِ، وفيهِ الانتقال من دارِ العملِ إلى دارِ الجزاءِ[1].

تذكير المنافقين بأنّ ردّهم إلى الله، مرتبط بحسابهم على جرائرهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3417.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾:

تخويفُ المعتذرينَ من أهلِ النِّفاقِ وتهديدُهم

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه تعالى: ﴿تُرَدُّونَ﴾؛ لأنَّهُ يدلُّ على أمرين: أحدهما: أنَّهم يذهبونَ إلى هذهِ الدّارِ غيرِ مختارين، بل يردُّون إليها مدفوعينَ. ثانيهما: في التَّعبير بلفظِ ﴿تُرَدُّونَ﴾ما يفيدُ معنى الرُّجوع إليها بعد هذهِ الحياةِ، وكأنَّهم في الدُّنيا في سفرٍ يعودُ بعدَها المسافرُ إلى حيثُ إقامتُهُ وموطنه، فالإنسانُ ما خُلق عبثًا، إنَّما خُلِقَ لأجلِ البقاءِ في الآخرةِ، فهيَ وطنهُ الأصليُّ إمّا نعيمًا مقيمًا، وإمّا عذابًا أليمًا[1].

دلالةُ تعدِّي الفعلِ ﴿تُرَدُّونَ﴾ بالحرف ﴿إِلَىٰ﴾:

تهويلُ الأمرِ، وتَرْبِيَةُ المهابةِ، من مقاصدِ السّياق

تعدَّى الفعلُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، ومعناهُ انتهاءُ الغايةِ، وعلى ذلك فالجارُّ والمجرورُ متعلِّقان بالفعل ﴿تُرَدُّونَ﴾، ومعنى الانتهاءِ في الآيةِ واضحٌ؛ إذ إنَّ مردَّنا جميعًا منتهٍ إليه سبحانه بعدَ مماتِنا، فهو سبحانه الَّذي يعلمُ السِّرَّ وأخفى، لا يخفى عليهِ بواطنُ الأمورِ وظواهرُها، قال البقاعيُّ: ثم تردُّون برادٍّ قاهرٍ لا تقدرونَ على دفاعهِ بعدَ استيفاءِ آجالِكم بالموتِ، وإن طالت ثمَّ البعثُ[2].

بلاغةُ وضعِ المظهرِ موضعَ المضمرِ:

السّياق ترغيبٌ للمُطيعينَ، وترهيبٌ للمُذنبينَ

قولُه: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، في الجملةِ الكريمةِ وَضَعَ المُظهَرَ ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ مَوضِعَ المُضمَرِ - حيثُ لم يَقُلْ: (إليه) - لِتَشديدِ الوَعيدِ؛ فإنَّ عِلمَهُ ﷻ بجَميعِ أعمالِهم الظّاهرةِ والباطنةِ، وإحاطتَه بأحوالِهم البارزةِ والكامنةِ ممّا يوجِبُ الزَّجرَ العَظيمَ، ففي الإظهارِ تنبيهٌ على أنَّه لا يَعزُبُ عنه شيءٌ مِن أعمالِهم، زيادةً في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ ليعلَموا أنَّه لا يخفى على اللهِ شَيءٌ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3417.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/2.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/124، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/331، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/8.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظي ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

أسماءُ اللهِ وصفاتُهُ عظيمةٌ، وقد استعملت دلالاتها ببلاغة وبيان

في وضع الوصفِ ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ عوضًا عن لفظ الجلالة، حيثُ لم يَقُلْ: (ثم ستُرَدُّون إلى الله، أو إليه)؛ لتَهويلِ الأمرِ، وتَرْبيَةِ المهابةِ، ولتشديدِ الوعيدِ، ففي هذا ما يدلُّ على كونهِ مُطَّلعًا على بواطنِهم الخبيثةِ، وفي ذلك تخويفٌ شديدٌ، وزجرٌ عظيمٌ.

دلالةُ تقديمِ لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾، على لفظ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

علمُ اللهِ ﷻ أزليٌّ، محيطٌ بكلِّ شيءٍ

سرُّ تقديمِ لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ على ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لتحقيقِ أنَّ نسبةَ علمِ اللهِ تعالى المحيطِ بكلِّ الأشياءِ في السِّرِّ والعَلن واحدٌ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه، كيف لا وعلمُهُ تعالى بمعلوماتِهِ منزَّهٌ عن أن يكونَ بطريقِ حصولِ الصُّورة بل وجودُ كلِّ شيءٍ وتحقُّقُهُ في نفسِهِ علمٌ بالنِّسبةِ إليه؛ وفي هذا المعنى لا يختلفُ الحالُ بين الأمورِ البارزةِ والكامنةِ[1].

دلالةُ التَّعريفِ بـ(الْ)، في لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ و﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

علمُ اللهِ يطال كلّ واقع ومتوقّع، لا يعزب عنه شيء

دلالةُ (أل) في قولهِ: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الاستغراقُ، أي: كلُّ غيبٍ وكلُّ شهادةٍ[2]، فلا يخرجُ عن علمهِ شيءٌ سواءٌ كان ذلك معلومًا أو غيرَ معلومٍ، موجودًا أو غيرَ موجودٍ، وكلُّ هذهِ المعلوماتِ تدورُ بين عالمِ الغيبِ وعالمِ الشَّهادةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفاءِ في: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

لا مندوحة من الرّجوع إلى الله، والخضوع للحساب بين يديه

آثرَ التَّعبيرَ بـ (الفاء) دونَ غيرِها؛ لأنَّ معناها التَّرتيبُ والتَّعقيبُ، إذ إنَّ الإنباءَ يكونُ عقبَ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى؛ وذلكَ دليلٌ على تأكُّدِ وقوعِ ما وعدَ بهِ وتحقُّقه، وأنَّه لا مفرَّ من قيامِ القيامةِ، ونزولِ ما وعدَ اللهُ تعالى بهِ[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/8.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3417.

بلاغة الكنايةِ في: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، يرادُ بها الكنايةُ عن المجازاةِ عن أعمالِهم الَّتي عملوها في الدُّنيا، أي: تجدونها أمامَكم، والجملةُ الكريمةُ فيها إيماءٌ لهم بأنَّ بابَ التَّوبة لا يزال مفتوحًا لتداركِ الأمر، والرُّجوعِ إلى اللّهِ تعالى، والتَّرغيبِ لهم بعمل الصّالحات، والتَّرهيبِ من بقائِهم على حالهم[1] وهذه الجملةُ تفيدُ أمورًا ثلاثة: أوَّلها: أنَّه لا يصحُّ أن تشغلوا أنفسَكم بما استدبرْتُم من أمورٍ، بل اشغلوها بما تستقبلونَ من أمورِكم، ثانيها: التَّهديدُ بأنَّ اللّهَ تعالى ورسوله يعلمانِ أمورَكم في المستقبل علمًا مؤكَّدًا، لا مناصَ من أن تتخلَّصوا من تبعاتِه، وإنَّ اللّه تعالى سيحبطُ أعمالَكم، ثالثها: إذا أردْتُم أن يدخلَ الخيرَ في قلوبِكم؛ فتوبوا عمَّا أنتم عليهِ".

تهديد المنافقين بسوء المصير، أمام العليم القدير

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾، على سبيل المجاز:

عبَّرَ بالمضارعِ؛ لأنَّ الإنباءَ في هذهِ الحالِ، ليسَ بالأقوالِ، ولكن بالرُّؤيةِ والأفعالِ، فهوَ على سبيلِ المجازِ، يرونَ أعمالَهم في نطقِ أيديهم وأرجلِهم بما كانوا يفعلونَ، وتشهدُ عليهم ألسنتُهم وجوارحُهم على ما يعملونَ؛ لذا عبَّر عن ذلكَ بالفعلِ المضارعِ الَّذي يفيدُ تجدُّدَ الإنباءِ بأعمالِهم، ويدلُّ هذا التَّعبيرُ على أنَّ النَّاسَ يعلمونَ ما فعلوا، ويرون جزاءَ ما عملوا حاضرًا مهيَّأً يستقبلُهم، ويستقبلونَهُ[2].

سيرى النَّاسُ في الآخرة، جزاءَ ما عملوا حاضرًا، بِقَضِّه وقَضِيضِه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الباء):

آثرَ التَّعبيرَ بالباءِ في قولهِ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على أكثرَ من معنًى: الأوَّلُ: الإلصاقُ، والمرادُ بالتَّنبئةِ المبالغةُ في كونِ السُّورةِ مُشتملةً على أسرارِهم، كأنَّها تعلم من أحوالِهم الباطنةِ

حرف الإلصاقِ في السِّياقِ، دليل على أهميّة حروف المعاني

(1) الدّيلميّ، الأساليب البلاغيّة في سورتي الأنفال والتّوبة، ص: 212.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3417 - 3418.

ما لا يعلمونهُ، فتُنبِّئهم بها، وتنعى عليهم قبائحَهم[1]. الثّاني: أنَّ (الباء) بمعنى (عن)، والرّاجحُ بقاؤها على أصلِها، فهو أَولَى من القولِ بالتّناوبِ، كما أنَّ بقاءها على الأصلِ يُشعرُ بأنَّ هذا الإخبارَ، وهذه الفضيحةَ ستتعدَّى ما كان صادرًا عنهم مِن نفاقٍ، لتصلَ إلى ما دقَّ في قلوبِهم من كُفرٍ وعداوةٍ أخفوها هي أعظمُ من الَّتي ظهرت منهم، وفي ذلك مزيدُ تخويفٍ لهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(ما) في: ﴿بِمَا﴾:

(ما) في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ موصولةٌ، أي: بما تعملونَهُ على الاستمرارِ في الدُّنيا من الأعمالِ السَّيِّئةِ السّابقةِ واللّاحقةِ، أو بعملِكم المستمرِّ؛ على أنَّ (ما) مصدريَّة[2].

من استمر على الضّلالة في الأعمال، انتهى إلى سوء المآل

نكتةُ ورود ﴿كُنتُمْ﴾، دالة على الزّمن الماضي:

(كان) هنا تدلُّ على اقترانِ مضمونِ الجملةِ بالزَّمنِ الماضي، والمنافقون متَّصفونَ بهذا الوصفِ ماضيًا وحالًا ومستقبلًا، وتقييدُ الفعلِ بالزَّمنِ لا يدلُّ على نفيهِ عن غيرِ ذلك الزَّمنِ.

دلالةُ اللّفظ على الماضي، لا يمنعُ دلالتَه على الحاضرِ والمستقبلِ

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ، في ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ (تعملون) على تجدُّدِ أعمالِهم المنافقةِ من الزَّمن الماضي، فهي تجري فيهم مجرى العادةِ؛ ولذلك أمرَ اللّهُ تعالى بعدمِ قَبولِ اعتذارِهم وتوبتِهم.

تجدُّدُ أعمالِ المنافقينَ، دليل على وجود ظاهرة النّفاق، في كلّ زمان

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ، بين آيتي سورة التّوبة:

عند تأمِّلِ قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

ورود وجوه الاختلاف بين الآيتين، دليل على دقة السّياق القرآنيّ في التّصوير

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/79.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/94، والبروسويّ، روح البيان: 3/487، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/5.

تَعۡمَلُونَ﴾ [التّوبة: 94]. مع قولهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]، النّاظرُ في هاتين الآيتين يجدُ بينهما تشابهًا في بعضِ المواطنِ واختلافًا في البعضِ الآخرِ، فمن ذلك أنَّ الآيةَ الأولى جاء فيها قولُهُ: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ بواو العطفِ، ولم يرد فيها ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾، وقالَ فيها: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾.

أمّا الآيةُ الثّانيةُ؛ فجاءَ قولهُ: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ بالفاء، وجاءَ فيها ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾، وقولهُ: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾، وبذلكَ اختلفتِ الآيتانِ، فما سرُّ هذا الاختلافِ؟

النّاظرُ في سياقِ الآيتينِ يجد جوابًا على ذلكَ، فالآيةُ الأولى في المنافقين، وهم الَّذين يُبطنون الكفرَ، ويُظهرونَ الإيمانَ، والآيةُ الثّانيةُ في المؤمنينَ وطاعاتِهم.

وأمّا عن سببِ عدمِ ذكرِ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ في الآيةِ الأولى، وذكرِها في الثّانية؛ لأنَّ الآيةَ الأولى تتعلَّقُ بأحوالِ المنافقينَ، والمؤمنونَ لا يعلمون بأحوالهم إلّا بإعلامِ رسولِ اللّه ﷺ لهم، يؤكِّد هذا ما ذكرهُ الكرمانيُّ في الآيتينِ، فقالَ: إنَّ "الآية الأُولى في المنافقين ولا يطَّلع على ما في ضمائرِهم إلّا اللّهُ تعالى، ثمَّ رسولُهُ بإطْلاعِ اللّهِ إيّاهُ عليها؛ لقولهِ: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ [التوبة: 94][1].

وممّا يُذكرُ في هذا المقامِ أنَّ اللّهَ ﷻ لم يذكر ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ ليعطي مساحةً للمنافقين في العودةِ إلى صفوفِ المسلمينَ، وذلك بقصرِ معرفةِ الإنباءِ على اللّهِ وعلى رسولهِ حتَّى لا يصابَ المجتمعُ بالعداوةِ والبغضاءِ؛ إذا ما انكشفَ أمرُهم للمؤمنينَ مباشرةً. والثانية: في المؤمنينَ وطاعاتِ المؤمنين، وعاداتُهم ظاهرةٌ للّهِ ولرسولهِ وللمؤمنين، يؤكِّدُ ذلك ما جاءَ في درَّةِ التَّنزيلِ أنَّ الآيةَ الثّانية: "فيمن أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ وهم الَّذين أوجَب عليهم الصَّدقاتِ بأن يقولَ لهم: اعملوا ما أمرَكُم اللّهُ بِهِ من الطّاعات كالصَّلوات والصَّدقات فإنَّ اللّهَ ورسولَهُ والمؤمنين يرون ذلك، وهذه الأعمالُ ممّا تُرى بالعَين خِلافَ أعمالِ المنافقين الَّتي تقتضي لهم النِّفاق لإضمارِهم خلافَ إظهارِهم، وهو ممّا لا يُرى بالعَين،

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 138.

وإنَّما يعلمه عالمُ الغيبِ؛ فلذلك لم يُذكر ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في الأولى، وذُكروا في الثّانية"[1].

سرّ استعمال ﴿ثُمَّ﴾ في الآيةِ الأولى، بخلافِ الثّانيةِ:

وأمّا عن ورودِ ﴿ثُمَّ﴾ في الآيةِ الأولى، بخلافِ الآيةِ الثّانيةِ في قوله: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التّوبة: 105]، ؛ فجاءَ بالواوِ في قولِه: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾، وذلكَ لأنَّ الآيةَ الأولى في شأنِ المنافقين الَّذين يبطنونَ خلافَ ما يظهرونَ، فكانَ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ الَّذي يفيدُ معنى التَّراخي هو المناسبُ لهذا السِّياقِ، ولم تكنِ الواو لتعطيَ هذا المعنى في هذا السِّياقِ؛ لأنَّ الآيةَ الثّانية في سياقِ الحديثِ عن المؤمنينَ، فهو من بابِ الوعدِ، لذلك أتى بالواوِ والسِّين المُؤْذِنَيْنِ بقُربِ الجزاءِ والثَّوابِ وبُعدِ العقابِ، أمّا المنافقون؛ فيؤخَّرُ جزاؤهم إلى موتِهم، فناسبَ ﴿ثُمَّ﴾ المؤذنة بالتَّراخي.

سرّ استعمال (الواو) في لفظ ﴿وَسَيَرَى﴾:

وأمّا عن ذكرِ الواو في قولِه: ﴿وَسَيَرَى﴾ بخلافِ الآية الثّانية، فجاءتْ بالفاءِ؛ لأنَّ الآيةَ الأولى في سياقِ التَّهديدِ للمنافقين حيثُ جاءت بعد قولِه: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: أطلعنا اللّهُ على نفاقِكم وسوءِ سرائركم، ثمَّ قال: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾، فهذا تهديدٌ عُطِفَ على مثْلِه، وقُصِدَ تعريفُهم بالمجموعِ ممّا استوجبوا به المقتَ، فلم يعطفْ بالفاءِ؛ إذ ليس ما تعطيه من المعنى مقصودًا هنا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّدُّ والرّجوعُ:

الرَّجعُ في اللُّغةِ: ردُّ الشَّيءِ إلى أوَّلِ حالِه، والرَّدُّ: صرفُ الشَّيء عن وجهِه، ولمّا كانا كذلك تضمَّن الرَّجعُ الإعادةَ مطلقًا بدون قيدٍ،

الـرَّدُّ: الإعـادة، مـع كـراهـةٍ لـلـمـعـاد، والرَّجعُ الإعادة مطلقًا بدون قيدٍ

(1) الاسكافيّ، دُرَّة التّنزيل: 2/726.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/234.

أمّا الرَّدُّ؛ فقد تضمَّن الإعادة، لكن على كراهةٍ له، لما فيه من معنى الصَّرف والتَّغيير، ويجوز لك أن ترجعَ الشَّيءَ من غير كراهةٍ له، قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ﴾ [التّوبة: 83]، ولذلك سمِّي الرجوعُ عن الإسلامِ إلى الكفرِ ردَّةً وارتدادًا لما فيه من الكراهةِ، فضلًا عن التَّحريم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: 217]، ومن الملاحظِ أنَّك لا تجدُ موضعًا في القرآنِ يُذكرُ فيه الرَّدُّ في الغالب إلّا مقترنًا بمكروهٍ، كالرَّدِّ إلى أشدِّ العذابِ، أو الرَّدِّ إلى الحساب، والآياتُ في ذلك ظاهرةٌ[1].

وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرُّجوعِ دونَ الرَّدِّ في قوله: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾؛ لوجودِ فرقٍ بينهما في الاستعمالِ، فالرُّجوعُ: العودُ إلى ما كانَ منهُ البدءُ مكانًا كان أو فعلًا أو قولًا، أمّا الرَّدُّ: فهو صرفُ الشَّيءِ بذاتِهِ أو بحالةٍ من أحوالِه، وعلى هذا، فالرُّجوعُ هو المناسبُ هنا لسياقِ الآية؛ لأنَّهُ يشير إلى العودِ إلى المكانِ الَّذي خرجوا منهُ، وهو المدينةُ المنوَّرةُ، وهم فرحونَ بعودتهم سالمين، بخلافِ الرَّدِّ؛ فيفترقُ عن الرُّجوعِ بأنَّهُ وإن اشتركَ معهُ في العودِ، إلّا أنَّ الرَّدَّ يكونُ فيهِ كراهةٌ وشدَّةٌ، يؤكِّدُ ذلك استعمالُ القرآنِ الكريمِ لِلَّفظِ (الرد) في هذا السِّياقِ، قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: 85].

وممَّا يؤكِّد الفرقَ بين الرَّدِّ والرُّجوع استعمالُ اللَّفظين في قصَّة موسى ﷺ ففي سورةِ طه، قالَ تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: 40]، وفي سورةِ القصصِ، قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: 13]، فالملاحظُ أنَّ القرآنَ استعملَ الرُّجوع في سورةِ طهَ؛ لأنَّ السِّياقَ في السُّورَةِ ثناءٌ على نبيِّ اللّهِ موسى بدليلِ قولهِ تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: 39]، بخلافِ سورةِ القصصِ، فالسِّياقُ فيها يتحدَّث عن الخوفِ على نبيِّ اللّه موسى من بطشِ فرعونَ، فكانَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾ [القصص: 13] مشعرًا بحالةِ القلقِ والخوفِ الَّذي تعيشهُ أمُّ موسى، فناسبَ ذلك التَّعبير بلفظ الرَّدِّ دونَ الرُّجوعِ.

العملُ والفعلُ:

النَّاظرُ في بعضِ كتبِ اللُّغةِ يجدُ فرقًا بينَ الفعلِ والعملِ: فالفعلُ: هو التَّأثيرُ في الشَّيءِ

(1) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 169.

من جهة مؤثِّرٍ، وأمَّا العملُ إيجادُ الأثرِ في الشَّيء، يُقالُ: فلانٌ يعملُ الطِّينَ خزفًا، ولا يُقالُ: يفعلُ ذلك؛ لأنَّ فِعْلَ ذلك الشَّيءِ هو إيجادُهُ على ما ذكرْنا، أي: إنَّ الفِعلَ عِبارةٌ عمّا وجد في حالٍ كانَ قبلَها مقدورًا سواءٌ كان عن سببٍ أو لا[1].

العملُ إيجادُ الأثرِ في الشَّيء، والفعلُ هو التَّأثيرُ في الشَّيءِ من جهة مؤثِّرٍ

أمَّا في آياتِ القرآنِ الكريمِ؛ فالأمرُ ظاهرٌ وجليٌّ، فلفظُ الفعلِ إذا وردَ في سياقِ الحديث عن القدرةِ الإلهيَّة؛ دلَّ على الوعيد الشَّديد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: 6]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: 1]، فالملاحظُ استعمالُ الفعلِ في الإهلاك لقوم عادٍ ولأصحابِ الفيل من غير بطءٍ، هذا في جانبِ المولى ﷻ، أمّا إذا وردَ في جانبِ البشرِ؛ فمعناهُ يختلف؛ لأنَّه يصدرُ في الغالب من غيرِ قصدٍ، أمّا العملُ؛ فإنَّه يكون بقصدٍ، يؤكِّد ذلك ما وردَ في آياتِ القرآنِ الكريم من ارتباطِ التَّكليفِ بالعملِ، قال تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25].

وممَّا يذكرُ في الفرقِ بينهما: أنَّ دلالةَ العملِ تأتي لما فيه امتدادٌ من الزَّمن وإبطاء، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ: 13][2].

وقد آثرَ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لما يحملُهُ من إثباتِ القصدِ للمنافقينَ في زعزعةِ صفوف المسلمينَ وتثبيطِ هممهم فضلًا عن ذلك، ففي الآيةِ ردُّ العجزِ على الصَّدرِ، حيثُ وافقت كلمة (تعملون)، وهي آخرُ كلمةٍ من الكلام، كلمة (عملكم) في صدرِه؛ للتَّأكيدِ على أنَّ اللهَ تعالى مطَّلعٌ على أعمالِهم وما تخفي صدورُهُم.

النَّبأُ والخبرُ:

النَّبأُ الخبرُ الَّذي له شأنٌ عظيمٌ، ولم يعرف من قبل، والخبر لا يشترط فيه ذلك

النَّبأُ: الخبرُ الَّذي له شأنٌ عظيمٌ، ومنه اشتقاقُ النُّبوَّة؛ لأنَّ النَّبيَّ مخبرٌ عنِ اللهِ تعالى، ويدلُّ عليه قولهُ تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق، ص: 134.
(2) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 167.

مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص: 2]. وقال الرّاغب: النَّبأ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يُقال للخبرِ: نبَأٌ؛ حتَّى يتضمَّن هذه الأشياء، وحقُّ الخبرِ الّذي يقال فيه: نَبَأٌ؛ أن يتعرَّى عن الكذبِ، كالتَّواتر، وخبرِ الله تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ ولتضمُّن النَّبَأِ معنى الخبر، يقال: أَنْبَأْتُهُ بكذا، كقولك: أخبرتُهُ بكذا، ولتضمُّنِهِ معنى العلم قيلَ: أَنْبَأْتُهُ كذا، كقولكَ: أعلمتُهُ كذا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: 67 - 68][1].

ومن خلالِ ما سبقَ ذكرهُ يظهر وجودُ فرقٍ بين النَّبأِ والخبرِ، وأنَّه لا ترادفَ بينهما، ويؤكِّد ذلك أنَّ القرآن الكريم عند ما يذكرُ أحوالَ الأمم الماضيةِ، يأتي بلفظ النَّبأ دونَ لفظِ الخبر، قال تعالى: ﴿*وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: 71]، ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: 69] إلى غير ذلك من الآيات.

وممّا يؤكِّد الفرقَ بين النَّبأ والخبرِ: حديثُ القرآن عن يوم القيامة، والجزاء والحساب، وهذا أمرٌ لا يعلمه إلّا اللهُ وله عظمتهُ وأهميَّتهُ، قال تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 105] إلى غيرِ ذلك من الآيات.

وممَّا يؤكِّد الفرقَ أيضًا أنَّ القرآنَ خالفَ بين اللَّفظين في آيةٍ واحدةٍ، قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ﴾.

وآثرَ النَّظمُ الكريمُ ﴿نَبَّأَنَا﴾ على (أخبرَنا) لوجودِ فرقٍ بينهما، فالنَّبأ يطلق على خبرٍ ذي فائدةٍ عظيمةٍ، يحصل به علمٌ أو غلبة ظنٍّ، ولا يقال للخبرِ في الأصلِ: نبأٌ؛ حتَّى يتضمَّن هذه الأشياءَ الثَّلاثة[2]. وعلى هذا يكونُ اصطفاءُ التَّعبيرِ هنا بالنَّبأ، في قوله: ﴿نَبَّأَنَا﴾ يحمل فائدةً عظيمةً للمؤمنين بإخبارهِم بما في قلوب المنافقينَ.

وممّا يؤكِّدُ الفرقَ بينَ النَّبأ والخبرِ ورودُهما في هذه الآيةِ الَّتي معنا ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ﴾ حيثُ وصفَ إعلامَ اللهِ تعالى لعبادهِ بالإنباءِ الدَّالِّ على أهمِّيَّة النَّبأ وعدمِ اطِّلاع المؤمنينَ عليهِ قبلَ ذلك، بينما وصفَ أحوالَ المنافقينَ بالأخبارِ؛ لأنَّها انكشفتْ،

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 529، والرّاغب، المفردات، ص: 789.
(2) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

وصارت معلومةً للرَّسول ﷺ وللمؤمنين، فاعتذارهم لم يكنْ مفاجأةً، بل كان معروفًا؛ لذلك كان لفظُ الخبرِ في قوله: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ هو الأوفقُ في هذا السِّياقِ.

وقد آثرَ التعبيرَ بقولهِ: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ دونَ يخبركُم؛ لأنَّ الإنباءَ لا يكونُ إلّا للإخبار بما لا يعلمه المُخْبَر، بخلاف الخبرِ؛ فقد يكونُ بما يعلمُهُ وما لا يعلمُهُ، وهذا المعنى يتوافقُ مع سياقِ آياتِ القرآنِ الكريم، ولا سيَّما في معرضِ الحديثِ عن يوم القيامة، وما يقعُ فيه من جزاءٍ وحسابٍ، يؤكِّد ذلك قولهُ تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13] والآياتُ في هذا السِّياق كثيرةٌ.

وأيضًا لأنَّ الإنباءَ معناهُ: الإخبارُ والإعلامُ عن الشَّيءِ قبل وقتِ ظهورهِ، والمرادُ بالتَّنبئةِ بذلك المجازاةُ، وإيثارُها عليها لمراعاةِ المجانسةِ ممّا سبقَ من قولِه تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، فإنَّ المنبَّأَ بهِ الأخبارُ المتعلِّقةُ بأعمالهم، وللإيذانِ بأنَّهم ما كانوا عالمينَ في الدُّنيا بحقيقةِ أعمالِهم، وإنَّما يعلمونها يومئذٍ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»